صور وصفية

# صـــــديقي بشر . . .

## للأستاذ محمود تيمور بك

تلقيت يوماً دعوة من إحدى الهيئات العلمية ، ولا أدرى متى جرى ذلك على وجه التحقيق . وكانت الدعوة لسماع محاضرة لغوية لبحاثة معروف ، سمعت به ، ولكنى لم أره بعد .

فذهبت ، وقد تخيلت لهذا المحاضر صورة تتفق مع موضوع محاضرته . . . رجلاً أشرف على الخمسين ، بشارب مهدل ، وعينين مجهودتين ، وصوت متآكل . فما كنت أستقر فى مكانى من القاعة وأرفع بصرى إلى المحاضر ، وقد اعتلى منصة الخطابة ، وبدأ يلقى محاضرته ، حتى طالعتنى صورة أدهشتنى جد الدهشة . رأيتنى أمام فتى كله شباب وحيوية ، بعينين تلمعان ذكاء ؛ له وجه صبيح ، بشارب طرير مشذب على الطريقة الفرنسية ، وقوام إغريقى يذكرنا بتماثيل « براكستيل » !

فتشككت فى الأمر ، وحسبت أنه قد جد تغيير فى المحاضرة والمحاضر ، وانحنيت على زميل بجوارى أتبين منه حقيقة الحال . فأكد لى أن المتكلم هو الدكتور بشر فارس نفسه !

ورحت أستمع ، فإذا بالمحاضر يلقى بحثه بصوت جميل النبرات ، فى لهجة فصيحة ، تتوضح فيها دقة فى الأداء ، وحسن اختيار لمواقف الجمل ، وحرص على سلامة مخارج الحروف . كل ذلك فى اتساق وانسجام كاتساق النغمات وانسجامها فى اللحن الفنى البارع !

واتسعت مسالك البحث وتشعبت ، بيد أن المحاضر كان قابضاً على زمام موضوعه قبضة جبار ، يديره فى حنكة ، إدارة الربان الماهر لباخرته وسط العباب الصاخب . . . حتى انتهى به أخيراً إلى شاطئ السلام .

* * *

منذ ذلك اليوم عرفت الدكتور بشر ، وما أسرع أن توثقت صلاتى به ! . . فتجلت لى فيه شخصية أخرى غير شخصية ذلك العالم المحقق — تلك شخصية الصديق الودود المرح . فالابتسامة اللطيفة التى طالما انقلبت إلى ضحكة عابثة لا تفارق ثغره ، والنكتة المصرية اللبقة تظل محلقة فى سماء مجلسه . وقد يمضى فى حديثه الطريف ، فلا يكاد يروى لك أخباره عن باريس ، ما شاهده فى دور العلم بها ، وما لقيه فى مغانى عبثها ولهوها ، حتى ينتقل بك إلى قهوة « الفيشاوى » ، ومطعم « الحلوجى » ، فيحدثك عن الشاى الأخضر ، وصحاف « الطعمية » الفاخرة تحيط بها أصناف المشهيات . . . ومن ثم يختفى أمامك العالم المجهد ، ليحل مكانه « ابن البلد » الوجيه العريق فى المصرية ، فلا يعوزه إلا ( اللاثة ) يديرها على رأسه ، فينطلق فى شارع « سيدنا الحسين » يلوح فى يمينه بعصا الفتوة ! !

والحق أن جلسة واحدة مع الدكتور بشر تريح الأعصاب ، وتملأ القلب من إيناس ، وتحول نظر المرء إلى الناحية الرقافة الجميلة فى الحياة . . .

* * *

صاحبنا الدكتور بشر وقتاً ، ثم طلبناه حيناً فلم نجده ، فكأنه « فص ملح وداب » كما يقولون . . ثم عاد إلى الظهور ، ولكن فى فترات متقطعة نادرة . كنا نراه اتفاقاً فى الطريق مهرولاً لا يقر له قرار ، وهو مخالط بشرذمة من النجارين والحدادين والطلائين . فإذا ما استوقفناه ، فسألناه عن سبب غيبته ، أشار إلى مرافقيه ، وقال وهو يتأفف فى لهجة المكدود : ألا ترون أنى مشغول ؟ ! ويتابع سيره فى عجلة واهتمام ، وقد اشتبك مع صناعه فى مناقشة حادة . . . فلا نشك لحظة فى أنه ودع العلم والأدب والتحق بزمرة المقاولين !

وبينا كنا فى مجلس نذكر صديقنا بشراً بالخير ، ونأسف

لتوديعه الأديب ؛ إذا به يفاجئنا بدعوة ظريفة إلى مسكنه الجديد فى « جاردن ستى » . فقمنا من ساعتنا إليه ، فوجدنا أنفسنا فى متحف فنىّ ، كل ما فيه ينمّ عن ذوق سليم غاية فى السموّ

وجعل صاحب الدار يمر بنا فى مقاصير المسكن وقاعاته المنشأة على أحسن طراز ، ويقف بنا أمام تحفه واحدة بعد أخرى ، وهو يشرح لنا تاريخها وقيمتها شرح خبير . فهنا صورة طريفة عليها إمضاء فنان ، وهنالك تحفة من الفن الصينىّ الثمين يرجع تاريخ صنعها إلى عهود غابرة ، ترى بجوارها مقعداً لطيفاً على شكل رَحْل من رحال الجمال . . . وفى ركن من أركان الغرفة يقوم ذلك الرفّ الساذج البديع ، يحتضن « تاييس » و « مدام بوفارى » و « أفروديت » وهن فى أثوابهن الغالية الفاتنة !

فقطنا بعد لأى إلى سرّ غيبة صديقنا ، وطفقنا نطوف معه ذلك « المزار » المبتكر — حيث يعبق فى جوه عطر الفن ، وتشمله روح الجمال !

طابَع الفن والجمال يسم حياة الدكتور بشر بأكملها ، يسم شخصه ومسكنه وتآليفه وكل أسباب عيشه . فإذا ما قرأت له مقالاً رأيته ألبس الفكرة العميقة والرأى الناضج ألفاظاً ينتقيها فى حكمة ، وينسقها فى صبر وجلد ، ثم ينضدها تنضيد العقد على صدر الحسناء !

فإذا لقيت شخصه ، ألفيت أمامك شاباً أنيقاً يحسن كيف يلائم بين لون رباط الرقبة والقميص والحلّة ، ليخرج منها صورة فنية طريفة . . .

* * *

ولصديق بشر شخصيتان : شخصية الأديب ، وشخصية العالم ، تتنازعانه على الدوام . . . ولا ندرى أيتهما يقدر لها الفوز على الأخرى ؟ فقد أصدر فى العام الماضى مسرحيّته الرمزية : «مفرق الطريق» ، فتلألأت نجماً جديداً فى سماء الأدب الرفيع . وظهر له منذ أيام كتابه : « مباحث عربية » ، فإذا هو سفر قد لا نغالى إذا قلنا إنه فى طليعة الآثار العلميّة التى تمخض عنها العصر الحديث ، من حيث دقة البحث ، واستيعاب الموضوع ، وحسن الصياغة ، والبراعة فى التنسيق والتنميق . كل ذلك على أحدث نهج علمىّ خطّه علماء الاستشراق ؟

ونحن اليوم نتتبع خطوات بشر فارس وهو يروح ويغدو ، ينحت الصخر آناً فى مفاوز العلم ، وينظم الزهر آناً فى خمائل الأدب ، ونتساءل فى حَيْرة : إلى أى مدى يستطيع الصديق أن يحتفظ بشخصيتيه المستقلتين ؟ وهل فى الإمكان أن يجمع المرء بين الأدب والعلم ، ولا يستشعر فى دخيلة نفسه ذلك التنافر القائم بين هذين العنصرين النفيسين اللذين لا يهدأ لهما حال إلا إذا أخضع أحدهما زميله واستعبده ؟!

* * *

وللدكتور بشر نواح خفية ، لا يعرفها إلا أصدقاؤه الخلصاء . وإنى لمذيع بعضها ، وأمرى إلى الله ! فقد يحاسبنى على إفشائها حساباً عسيراً !

إن صديق بشراً — ولنخفض أصواتنا قليلاً — رجل ذوّاقة فى المآكل ، واسع الاطلاع على ألوان الطعام ، عظيم الخبرة فى كل ما تزدان به الموائد . . . وإنها لمتعة حقاً حين تسمعه يحدثك عن صحاف الأطعمة المختلفة واحدة بعد أخرى ؛ يروى لك — وعيناه تلمعان أمام المرَق الشهى — كيف يشترى بنفسه الزبد الطازج ، وينتقى عند الجزار أطايب اللحم ، وكيف يقف أمام الفرن يجهز الصنف الذى يحب ، ثم لا يلبث أن يأتى عليه ولمّا يتمّ نضجه على النار ، مقتفياً أثر المثل الصالح : خير البر عاجله !

ولصديقنا بشر جولات موفقة فى مطاعم المدينة ، فهو إذا دخل أحدها لا يطلب القائمة ، ولا يُعنَى بمكانه من المائدة ؛ بل يطلب أن يدلوه فوراً على المطبخ . . . وثَمّ يكشف عن القدور يتفحصها تفحُّص عارف ، ثم يشير أخيراً إلى واحدة منها ، فيحضرونها له بأكلها . . . ويشمّر الدكتور عن ساعد الجوع غير معنىّ وتتئد بأناته ، وينكبّ على القِدْر فيأتى — فى لحظة خاطفة — على ما تعب الطاهى فى صنعه ساعات طويلة !

وإنى أنصح — نصيحة مجرب ! — لمن أصيب فى معدته ، ورغب فى دواء ناجع لإصلاحها أن يأتى بالدكتور بشر عن يمينه وبزكى طليمات عن يساره ، ثم يراقبهما هنيهة وهما يتناضلان فى معركة القدور كرًّا وفرًّا — فإنه لا يلبث أن يشعر بمعدته تتصايح فى ثورة جائعة ، وإذا به ينطلق هو أيضاً فى صحاف الطعام يفتك بما فيها فتك مغوار !

محمود تيمور